السيدة نفيسة

مقامها ومنزلتها

للاستاذ أحمد رمزي بك

« يا أيا اسحاق لا تعارض أهل مصر فى نفيسة فان الرحمة تنزل عليهم ببركتها »

رؤيا المؤمن

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
قفا نسأل الدار التي خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات

للحديث عن السيدة نفيسة رضي الله عنها (روعة خاصة) اذ هي ذات المنزلة الرفيعة العالية فى قلوب أهل مصر ، تهتز القلوب حين تنطق باسمها ، وتملو نفسك ومشاعرك حين تؤم مشهدها وتزور مقامها وتصلى بمسجدها .

ولقد شاءت إرادة الله ، وماخطه تعالى فى سجل رحمته وعنايته لمصر وأهلها ، أن تكون هذه البقعة التى ترقد فيها السيدة الطاهرة ، بقعة مباركة تفيض على الوجدان آيات الشعور والاخلاص ، ومظاهر الخضوع والشمول .

فأنت إذا دخلت مسجدها ورأيت مقصورتها استقبلتك الآية الكريمة :

« قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى »

وقليل من الناس مهما قست قلوبهم وتحجرت مشاعرهم من يتمالك عبراته أمام قدسية هذا المشهد ، شعر بذلك كل من زارها فى الأعصر القديمة ، وكل من دخل مقامها فى العصور الحديثة ، وتحدث كل واحد منهم بما شعر به من النفحات التى تغمر نفس الانسان ، فتجعلها تتذوق حلاوة الايمان ، وتلمس عن قرب عظمة تراث ومجد هذه العزة النبوية ، التى جاءت أرض مصر فى مستهل عصور الهجرة ، فاتخذت بلادنا لها مقاماً ومنزلا ، فشرفتها ورفعت من قدرها وأعلت مقامها فوق كل مقام ، ومن وقتها عرفت مصر بأنها من منازل آل البيت الكرام صلاة الله وسلامه ورضوانه عليهم .

وأنا ممن يعرف اختلاف المفسرين فى تفسير الآية الكريمة التى أشرت اليها وفى تأويلها ، وهم قد يذهبون فى آرائهم شيعاً ومذاهب ، ولكنني أحملها على ظاهرها وآخذها على النمط الذى أختاره وأرتاح اليه لتستقر الآية فى نفسى . فأقول إنني حينما أقف أمام المقام وأرتل الآية الكريمة ، أؤدى واجب المودة لقربى هذا النبي العربي الكريم ، معجزة الأجيال السابقة واللاحقة والقادمة ، الذى بفضله ذقت حلاوة الايمان وبهديه اهتديت وعلى سنته سلكت ، فأصبحت فى زمرة أتباعه ، وأتباع آله وأنصاره وأصحابه أولئك جميعاً الذى اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

***

هانحن أولاء فى أوائل القرن الثالث الهجرى وقد ختمت المائة الثانية ، فاذا فى سماء مصر العربية ذات الفتوح ، يلوح اسمان كنجمين لامعين يشقان أضواء الهداية على هذه الأرض الطيبة ، هما السيدة نفيسة رضى الله عنها والامام الشافعي رحمه الله . عاشا فى مدينة الفسطاط العربية ، وحضر الامام مجلس السيدة العظيمة القدر من وراء ستار ، فتناولا بالبحث والدارسة والمناقشة أمور الدين والدنيا .

وكان الشافعي يؤم صفوف الناس فى الصلاة بالمسجد العتيق ، وكانت تأتى هى فى شهر رمضان فتحضر صلاته ، وتقف وراء

أناوى وأبكي وأتضرع ولكن انسانيتها كانت قد غابت فبدت فيها حيوانية جارفة تفترس بالناب والظفر ثم لا تهدأ إلا أن تلغ فى الدم » .

قالت الخادم كلماتها من خلال عبرات تتدفق أسى ويأساً ، ثم كشفت عن ذراع مزقتها كيات النار التى لا تعرف الرحمة ، أوحى بها قلب خلا من الرحمة والشفقة والانسانية جميعاً .

وعجبت أن يكون هذا الجمال الفتان ستاراً يوارى خلفه قلباً لا ينبض بالرأفة ، وروحاً لا تخفق بالحنان ، ونفساً لا تنضم إلا على الوحشية والافتراس .

ولكن ، لا عجب — يا صاحبي — فإن الانسانية حين تتهاوى تسفل فتتضع فتنحط إلى أوضع مراتب الحيوانية !

كامل محمود حبيب

الصفوف تصلى وراء الامام الذى أصبح مفخرة مصر ومعجزة من معجزات الاسـلام فى القرن الثانى الهجرى بعلمـه وفقهه وبيانه .

ومرت الأيام وجاءت سنة ٢٠٤ هجرية فمات الشافعى ، بعد أن ترك فى العالم دوياً وأضاء فى أرض الـكنانة شعلة ، تسلمها تلاميذه من بعده ثم أتباعه فتلاميذ أتباعه وحملوها إلى يومنا هذا، تسع منها أنوار الهداية للذهب باق على الأرض ، ما بقيت الأرض؛ فهم إذن سدنة وحفظة ركن من أركان هذا التراث الخالد من مصر العربية الاسلامية حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

انتقل الشافعى لجوار ربه فحزنت مصر بأسرها عليه وسارت جنازته من المسجد العتيق ، مسجد سيدنا عمرو بن العاص، فمرت بالمنزل الذى كانت تقيم به السيدة نفيسة ، فصلت عليه ثم سارت جنازته إلى المـكان الذى دفن فيه ، وقالت رضى الله عنها كلمتها المعروفة « رحمه الله! انه كان يحسن الوضوء» .

***

ومن مظاهر القرن العشرين وعبقرية رجاله ، أن تشغل السيدة نفيسة أهل مصر أكثر من أحد عشر قرنا من الزمن ، بكرامتها ومنزلتها وعلمها وسؤددها فيكتب الناس عنها[1] الـكتب ويزور مشهدها الملوك والسلاطين والأمراء والقواد والعلماء ، ومن كانت تهتز الدنيا بعزائمهم وقوتهم وثباتهم ، ثم أصبح منذ مدة ان بعض الـكتاب تعرض إلى تحقيق تاريخى يخلط فيه بين السيدة نفيسة صاحبة المقام العالى ، والسيدة نفيسة الآلفية التى عاشت فى عهد الحملة الفرنسية . أما السيدة نفيسة الأولى المعروفة النسب الثابتة الأصول فكان أبوها الحسن بن زيد، وأمها أم ولد. وأخوتها ومحمد القاسم وعلى وابراهيم وزيد وعبدالله ويحيى واسماعيل واسحق وأم كلثوم، وزوجها اسحاق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب. فهى شريفة حسنية وزوجها شريف حسينى .

وكان لها ولدان : القاسم وأم كلثوم لم يعقبا ولـكن زوجها اسحاق عقب من غيرها. ذكر المقريزى أن زوجها عقبا من غيرها عرف فى زمانه بمصر بنو الرقى ، وبحلب بنو زهرة .

وقد دخلت السيدة نفيسة الديار المصرية مع زوجها المؤتمن ، فأقامت بها وكانت ذات مال وجاه ، فاخذت تواسى الناس وتشملهم ببرها وخيرها وكانت عابدة زاهدة . ذكر المؤرخون كيف اعتاد عمر مقدمها وأكثروا من الكلام على مآثرها وكراماتها وزهدها فى الدنيا .

ولما توفاها الله سنة ٢٠٨ هجرية عزم زوجها أن يدفنها بالمدينة فتقدم أهل مصر وسألوه أن يدفنها عندهم فدفنت بالدار التى كانت تقيم فيها ومن يومها اعتز أهل مصر بها وبمقامها بعد أن أضاءت أرض مصر فى أيام حياتها بأنوار هدايتها وصلاحها .

واليك بعض ما ذكره القدماء عن السيدة نفيسة ومنزلتها ومقامها ومشهدها .

يقول شمس الدين محمد الزيات بكتاب الـكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة بالقرافتين الـكبرى والصغرى « هى السيدة الطاهرة العالية القدر الرئيسة ابنة الامام الحسن الأنور بن زيد الأبلج ابن الأمام حسن السبط » وهناك اجماع على انها ولدت بمكة ونشأت بالمدينة وكانت لها صحبة بكثير من النساء اللاتى عشن مع الصحابيات أو سمعن عنهن وتلقين العلم عن طريقهن . وكانت السيدة نفيسة ممن قد أشبع قلبها بالعبادة فكانت لا تفارق حرم النبى صلى الله عليه وسلم. وقيل انها حجت ثلاثين حجة أكثرها ماشية على أقدامها من المدينة إلى مكة . فكانت إذا دخلت البيت العتيق تعلقت بأستار الـكعبة وأخذت تبـكى بكاء شديدا وتقول « الهى متعنى برضاك عنى ، فلا تسلب لى سببا به عنك تحجبنى» وقالت زينب بنت يحيى المتوج « خدمت عمتى نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت الليل ولا أفطرت بنهار. كانت عمتى تحفظ القرآن وتفسيره » .

* * *

ولا شك فى أن الأثر الذى تركته السيدة نفيسة من يوم دخلت مصر إلى أن دفنت فيهـا كان بالغا وأن أهل مصر تعلقوا

---

(١) ورد فى كتب القدماء اسم كتاب « الروضة الأنيسة بفضـل السيدة نفيسة » فلعل يدل الـكاتب عليه عظيم الفـكر .

منذ القدم بها وبآل البيت ولذلك أحلوا مقامها المقام الذى يتفق مع قدسية هذا البيت وعظمته فى تاريخ الاسلام وأصبحت البقعة التى دفنت فيها بقعة يحيطها الناس بمظاهر الاحترام؛ فهى بقعة تحوى مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن، والسيدة نفيسة بنت زيد، وتحوى مشاهد الخلفاء العباسيين والسادة المالكية وكثيرين غيرهم مما ذكرهم السخاوى فى كتابه صفحة ١٢٥ وما جاء فى خطط المقريزى جزء ٤.. وذكر ابن جبير الرحالة الأندلسى صفحة ١٥ قال :

« بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة وهى إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد أهل البيت رضوان الله عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد الأولياء والأولياء ذات الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة . ومشاهد أهل البيت أربع عشر من الرجال وخمس من النساء » انتهى كلام ابن جبير .

وذكر ابن بطوطة فى رحلته صفحة ٦١ ما يأتى :

« ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن على عليها السلام ، وتربة السيدة نفيسة بنت الحسن وكانت مجابة الدعوة مجتهدة فى العبادة وهذه التربة مشرقة الضياء عليها رباط منثور » انتهى كلام ابن بطوطة

وذكر ابن دقاق صفحه ١٢٠ جزء ٤ « أن العمارة كانت متصلة فى زمانه بين هذا الجامع والفسطاط والقاهرة ، وحدد أماكن العمارة فقال : كانت إلى حدرة ابن قيحة وإلى الصليبة وإلى سوق الجمال بالرميلة وإلى القبة التى سماها بالصفراء » وقال « إن الجامع أو المسجد الذى أنشىء بالمشهد النفيسى — هو الذى لا تزال قبته فوق الضريح قائمة — أنشأه السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالى محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحى وكان ذلك سنة ٧١٤ وتولى الخطابة فيه القاضى علاء الدين أبو عبد الله محمد بن القاضى زين الدين نصر الله شاهد الخزانة السلطانية . وأول خطبة خطبها فيه كانت فى يوم الجمعة ٨ صفر سنة ٧١٤ وحضر الجمعة بالمسجد الخليفة العباسى أمير المؤمنين المستكفى بالله أبو الربيع سليمان وولداه وابن عمه والكركى ناظر المشهد النفيسى والأمير سيف الدين كراوش شاد العمائر السلطانية وهما اللذان تولبا عمارة هذا المسجد وأشرفا على بناء أروقته والقسقية المستجدة — رحم الله الناصر ورجاله وعصره .

***

إذن فاعلم أن هذه البقعة الخالدة الطاهرة قدسية النفحات ، بل هى بين الأماكن المباركة من هذه العاصمة الاسلامية الكبرى، والمصر الأكبر قاهرة المعز لدين الله الفاطمى وماذا أقول عنها ، وقد كان أول ما وعيت فى حياتى، اننى حملت يوما إلى مقام السيدة نفيسة فكانت هذه الزيارة أول شىء وعيته، وأول ما علق بذاكرتى من أمور الدنيا فى أيام الطفولة التى تبدأ بالخروج من المهد ، حينما كنت لا أفرق بين اللون واللون ولا أعرف مظاهر الأشياء ، فكان ان بدأت الذاكرة تحفظ ما انطبع عليها ، فاذا زيارة هذه البقعة الطاهرة والعودة منها إلى المنزل الذى كنا نقيم فيه هى أول ما وعيت فى الدنيا .

ولذلك نشأت وبين هذه البقعة الخالدة ونفسى صلة روحية لا تنقطع ما دمت حيا ، فقد قطعت العالم شرقا ومغربا واتخذت مقامى ببلاد الغرب أكثر من ربع قرن ، وتعرفت إلى مذاهب الملاحدة والفلاسفة وعشت بين أنصار الفلسفة المادية وأتباع المذهب الشيوعى — ولكنى إذا جئت مصر زائرا ولو لمدة أسبوع واحد أركب خصيصا لهذا المقام وأزوره خاشعا لأحيى صاحبته وأقرأ الفاتحة لها ، وأتقرب إلى الرسول بتقربى إليها ، وأتوجه إلى الله تعالى أحمده وأشكره أن منحنى الصحة والعافية والتوفيق وأعادنى إلى مسقط رأسى لأقف هذا الموقف .

ولما أقمت بعاصمة الديار المصرية ، وبعد استقرارى بها جعلت من واجبى التيمن بالزيارة كل شهر مرة وأحيانا أراني — مدفوعا بقوة لا تغالب تدعونى إلى زيارة هذه البقعة الطاهرة وان أتوجه فيها بالدعاء ليقينى بأن الدعاء فيها مستجاب وأن المنازل لله جميعا ولكن هذه البقعة من المنازل التى أراد الله تكريمها .

وقد تطول بى الغربة بالشرق والغرب فأناجى بلادى وتتمثل لى مصر بأجمل مظاهرها وأهل مصر وشعبها وتاريخها فى هذا المشهد النفيسى وهذه البقعة المباركة ! وأود لو أتيت طائرا إليها فأحيى الزائرين والواقفين ، وكل سائل ومحروم وكل ملح فى السؤال ممن تقابلهم على بابها . إنهم جميعا قطعة من هذه البقعة